كـــعيك النّـــــوري

كادت الهجرة تُفقِده جمال وجهه الذي يشعّ نوراً، ولكنّ الجمال وحده لا يقي شوك الحياة دون أن يردفُه عملٌ يفضي الحصول على مال؛ ليوفّر له شيئاً من كرامةٍ في الحياة.

انتقل محمد من إحدى القرى التي هُجّرت في الداخل المحتل بعد المجازر التي رآها بأم عينيه، وأخذ ينتقل من قرية إلى أخرى في الضفة الغربية، باحثاً عن عمل، ولكن أنّى له ذلك؟! فالكلّ في حالةِ فقرٍ شديدٍ، وهو لا يملك مالاً كي يشتري أرضاً يحلم أن يزرعها قمحها فيأكل خبزاً بلدياً أخرجه طابون موجود أمام البيت، أو ليصنع من زيتونها (رصيصاً) أخضر أو أسود أو يأخذ منها قليلاً من الزّيت كما باقي أهل القرية، أو حتى ليزرع بضع شتلات من البندورة، لتكبر وتثمر؛ فيأكل حبّاتها الحمراء وليجفّف الباقي فيأكل منه في فصل الشّتاء التي تنعدم فيه الخضراوات، لم يجد أي من هذه الخيرات التي كانت حلماً يراوده منذ هجرته.

أقفلت الدنيا أبوابها في وجه محمد، مما اضطره أن يعمل في أصعب مهنة وأحقرها، فقد صار حذّاءً يقصّ أظافر الخيلِ والحمير

والبغال، فهذه المهنة لم يعمل بها أهل القرية رغم فقرهم، لأنهم يرونها مهنةً سيئةً وتجلب كلام النّاس القاسي للعامل بها، لأن رائحةَ أظافر الحيوانات تكون كريهةً عند قصّها، فمن هنا ابتعد عنها الجميع، مما جعل محمد يقبل عليها، فهي المهنة الوحيدة التي فتحت لهُ أبوابها، وظل يقول لمن يسخر منه: اشتغل في الزفت ولا احتاج الزفت .

وفي المساء يتحوّل إلى حدّادٍ بسيط؛ يشعل النار، فتؤنسه في وحدته، وتبعد عنه شرّ ضبعٍ غادرٍ قد يقترب، ولتساعده في صناعة الفؤوسِ ويشحذ السّكاكين لأهل القرية.

لم يعد لمحمد في هذه القرية أو غيرها أي عائلةٍ بعد موت أبيه وأمه وإخوته، فقد قتلهم اليهود قبل الهجرة، ولم يبق له إلا أخته نظيرة، التي بُهر أهلُ القرية بجمالها، بعيونها الزّرقاء ووجها المنير الذي وصفوه بأنه أحلى من القمر.

ولكن جمالها لم يشفع لها، ففقرها ومستواها الاجتماعي، وقفا سداً أمام أي طموح لها، إضافة إلى أن فرص العمل ليست محدودة بل نادرة؛ مما جعلها تعمل خادمةً عند الباشا، الذي يملك معظم أراضي القرية، تخبز لعائلته، وتطعم الأغنام، وتكنس البيت الواسع، كانت تحسده عندما تراه وعائلته يأكلون الدّجاج مرةً أو مرتين في الأسبوع، بينما باقي أهل القرية يأكلونه مرةً كل

شهرين أو ثلاثة، فتظل تقول: ناس بوكلوا الجاج وناس بوقعوا في السّياج، آآآآآآآآآآآآآآخ الدنيا حظوظ.

لم يتقدم لخطبتها أحد؛ فهي بنت النّوري الذي يعمل أخوها حذّاءً، فظلت نظيرة تعمل في خدمة البيوت حينا وعند الباشا أحياناً، وتعمل في مهنة الرّقص في أعراس البلد، لتوفّر بعض القروش لعيشتها التي لطمتها الحياة لطمةً قوية.

وفي أحد الأيام تأخّرت نظيرة عن عودتها إلى خيمة أخيها محمد، وكان عنده رجل مشهور بالفتنة والفساد، راودها عن نفسها، قبل عدة أيام فأبت، وعندما قال لها :

- إنت أجمل نساء القرية وأجمل من زوجتي الغولة.

قالت له: طيب تعال واخطبني من أخوي محمد.

- طيب باجي بخطبك، ثم اقترب منها ووضع يده على خدّها، فانتفضت بعيداً، فقال لها:
- ولك يا هبلة بدّي أتجوزك، بس خليني أبوسك وأحضنك شوي.
- استحي ع دمك إنت زلمي كبير، بس مش محترم، بدك تتسلى في بنات الناس، وبس.

غضب لامتناعها عن تلبيتها رغباته، ولم يجرؤ أن يخطبها، وكيف يخطبها وهي بنت النّوري وأخته؟! وكيف يخطبها وهو لا يراها إلا متعةً عابرةً لفريسةٍ تبحث عن صيدٍ يلتهمه ثم يلقي ما تبقى منه على قارعة الطريق ؟!

ذهب الى النّوري تلك الليلة ليصنع له فأساً، وفي السّهرة قال له:

-إنت يا محمد رجل غريب، وعليك تحافظ على عرضك.

-شو قصدك؟

-أختك نظيرة، النّاس حكوا عليها كثير بالعاطل، وقالوا إنها كانت تسهر عند أبو جابر حتى آخر الليل، وزوجته كانت عند أهلها، شو بدك الناس يقولوا؟ واطلّع لهلكيت ما روحت! شو الّي بدو يظب إلسنات الناس؟

غادر الرجل خيمة النّوري، بعد أن ألقى سمومه في قلبِ محمد، الذي بدأ يفور كالمرجل، وبدأت مخيلته تسرح يميناً ويساراً، فقام إلى سكينه الذي صنعها إلى أحد الزّبائن قبل أيام، أمسكها في يده، وأخفاها في (عبّوه) وانتظر وصول أخته.

-وين كنتي يا نظيرة؟

- في بيت البيك.

-ليش سهرتي عن أبو جابر هظاك اليوم للصبح؟

ولم تكدْ تجبه عن سؤاله حتى عاجلها بغرزِ سكّينه في صدرها. شهقت عالياً، ووضعت يدها على صدرها الذي يتدفّق منه دماً غزيراً، نظرت إليه نظرةَ عتابٍ وألم، وهي تودّع الحياة، كانت تود أن تخبره بقصّتها مع من راودها عن نفسها، أرادت أن تصرخ عالياً لتقول له أنها بريئة، أرادت أن تقول له أن العار هو انكشاف عوراتِ عقول أهلِ القرية المريضة، وفي عقلِ من أرادها عاهرةً تقدّم خدماتها لكلّ طالب لها، أرادت أن تقول له أن دمها لن يجلب له الخير ولا البركة، ولكنّها لم تستطعْ فعل أي أمر من ذلك.. ثم أسلمت روحها إلى بارئها...

رغم قسوة الحدث وحديث أهل القرية عن الموقف، فإن دماء نظيرة لم تُزِل نظرةَ السّخرية أو العار من عيون النّاس -كما كان يظنّ بعد فعلته - ولم يجد بطولةً كان يظنّ بنفسه أن يحملها من ضربة خنجرٍ قاسيةٍ اعتقد أنه سيحققها بعد هذه العملية البطولية. ظلّ العار يلاحقه، وينهش من جسده، ولكن نظرة نظيرة الأخيرة، كانت أقوى من كلّ شيء، أقوة من خنجره اللامع،وضربته الساحقة، لقد كانت نظرة حزنٍ ووداعٍ واستهجانٍ ودفاعٍ في آنٍ واحدٍ، ظلت تلاحقه في صحوه ومنامه، مما جعله يخجل من نفسه قبل النّاس، ويندم في وقت لات فيه حين ندم،

فلم يجد بداً إلا أن ينكفئ على نفسه، ويبعد خيمته أكثر عن عيون النّاس.

صار مهموماً مغموماً، لا ينظر إلا أمامه، مما جعل ظهره ينحني شيئاً فشيئاً، وبدأ جماله يخبو وقوته تفتر وتزول، ولم يعد قادراً على إشعال النّيران، ليصنع الفؤوس، كلّ شيء قد خبا، حتى اسمه صار كعيك النّوري...

قوّست الأيام ظهره، وصار كعيك بعد أن كان محمداً، وبعد أن كان وجهه نوراً حتى صار اسمه النّوري، ذهب كعيك إلى ربه، يحمل همّه الّذي أعياه وقصم ظهره، مات وهو يحمل نظرات النّاس الجارحة، وكلامهم القاتل، ولكنّ قصته بقيت توخز قلب كلِّ حيٍ عرفه أو سمع عنه، وظلّ قاتل نظيرة يصول في القرية ويجول، يرفع رأسه عالياً، ويمارس عمله دون رادع، يبحث عن نظيرة أخرى يقتلها بلسانه قبل أن ينهش جسدها بأنيابه، رغم مرور عشرات السّنين على موتها.